الباب الأول

مع الرشيد

"اللهم اهد قريشا فإن عالمها يملأ طباق

الأرض علما"

"**حديث شريف**"

الفصل الأول

مع الرشيد

كان الرشيد في الرقة عندما كتب له قائد من قواده في اليمن يخوفه من نفر من العلوة بينهم رجل يقال له "محمد بن إدريس الشافعي" يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه فإن أردت أن تبقى الحجاز عليك فاحملهم إليك.

وأمر الرشيد أن يحشر المتهمون، من أقصى الجنوب وأقصى الغرب، إليه في أقصى الشمال، وأقصى الشرق، من شبه جزيرة العرب. واستبد به الهم المقيم المقعد. فلا سياسة التسامح التي استنها مذ ولي الخلافة قد ألفت قلوبهم ففاءوا إلى السكينة والطمأنينة، يوم أجري على الذين كانوا منهم ببغداد ديم فضله وسرحهم بإحسان إلى المدينة، ولا أرهبتهم سياسة البطش التي عمد إليها معهم ومع الخوارج في بضعة عشر عاما مضت. ولا سكنت ثائرة غضبهم سياسة المراقبة ثم الفتك التي اتبعها مع زعيمهم موسى بن جعفر الكاظم منذ عام فقط! لا التسامح ولا البطش ولا الانتباه ولا التغافل.. ولا ما صنعه أباؤه وأجداده بآبائهم من كل ذلك، بمزحزحهم من دعواهم أن الخلافة لأبناء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بدلا من الرشيد وآبائه خلفاء بني العباس!

كان الشافعي على عمل باليمن ولم تكن جريرته عند من سعوا به إلا أخذه بأسباب العدل والعلم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والارتفاع عن ملق المحكومين والميل بالهوى إلى طائفة دون أخرى. قال: "ثم خرجت إلى اليمن فارتفع لي بها الشأن. وكان بها وال من قبل الرشيد وكان ظلوما غشوما. وكنت ربما آخذ على يديه وأمنعه الظلم".

وقال: "كنت على عمل باليمن فاجتهدت في الخير والبعد عن الشر..".

وقال: "ثم وليت نجران وبها بنو الحارث بن عبد المدان وموالي ثقيف. وكان الوالي إذ أتاهم صانعوه. فأرادوني على نحو ذلك فلم يجدوا ذلك عندي. وتظلم عندي ناس كثير فجمعتهم وقلت: اجمعوا لي سبعة يكون من عدلوه عدلا، ومن جرحوه مجروحا. ففعلوا. وجلست وأمرت بتقديم الخصوم، وأجلست السبعة حولي فإذا شهد الشاهد التفت إليهم فعملت بتعديلهم أو تجريحهم. ولم أزل حتى أتيت على جميع الظلامات. فلما انتهيت جعلت أحكم وأسجل. فلما رأوا ذلك قالوا هذه الضياع ليست لنا وإنما هي لمنصور ابن المهدي، فقلت للكاتب: اكتب: وأقر المذكور أن الضيعة التي حكمت عليه فيها ليت له، وإنما هي لمنصور، ومنصور باق على حجته، فيها، إن كانت قال. فاجتمعوا وخرجوا إلى مكة، وعملوا في أمري حتى حملت إلى العراق".

هذه الكلمات القليلة على وجازتها، كالعدسات المكبرة على دقتها، تفتح أعيننا على رجل في ثلاثيناته يعمل لوال في رفع المظالم فيصنع صنيعا غير عادي، في أمور شتى من الفقه والقضاء منها:

أنه لا يتدلى إلى مخالطة أصحاب المظالم، ليداهنوه ويدلسوا عليه. فالعدل في الإسلام كالتوحيد صفة من صفات الخالق سبحانه. وهو أساس قيام الدولة، وليس مجرد إصلاح في الحكم أو إحسان في العمل.

وأنه يعقد مجالس القضاء علنية على أعين الجمهور، ويحيط نفسه بثلة من أعوان القضاء يزكون الشهود، أو يشهدون على الشهود، فيجعل صدق الشهادة مسئولية أهل الصلاح في الجماعة. ويجعل على الحاكم مسئولية الاستنباط والترجيح والحكم.

وأنه يضع المبادئ الكبيرة في القضايا الكبيرة تترى، دروسا للأجيال اللاحقة. فلا يعطل القضاء بمحال الألد الخصم، ويأخذ الخصوم بأقاريرهم. ويعتبر الإقرار حجة قاصرة على المقر. والأحكام نسبية بين الخصوم فيها لا تتعدى إلى الغير. ويحفظ غيبة للغائب، فيذره وشأنه حتى يدعى بحقه ويدلي بحجته – إن كانت قال – كما عبر ذلك التعبير الواضح المختصر.. كأنه حبات ينحدر. فوراء هذه الكلمات نظريات عدة في نظم المرافعات، لم تصبح من المسلمات في الحضارة الأوربية إلا في القرن العشرين..!

وهو لا يصدر الأحكام فرادى قضية، قضية، بل يسمع الظلامات كافة، ثم يأخذ في إصدار الأحكام، في آخر الجلسة، ثم يسجل الأحكام من فوره.

وكأنما القارئ لهذه العبارات يقرأ تلخيصا مشرقا موفقا لمبادئ قانونية في أحدث القضايا العصرية.. تسكر البصر بأسلوبها السهل الممتع المعبر.

ولم يك بدعا، بل كان من طبائع الأشياء، أن نرى المبطلين غضابا مبرطمين، أو خراصين يتمضغون لحم القضاة، أو أعداء لمن ولي الإحكام. هذا إن عدل. أو يمكرون المكر الكبار، فيدبر بنو عبد المدان للشافعي ما قرف به من اتهام. وكانوا قوة في نجران، مذ استجاب بنو الحارث لخالد بن الوليد إذ بعثه النبي في سرية يدعوهم للإسلام، وكتب إليه "بشرهم وأنذرهم وأقبل ومعك وفدهم". فقدم في وفدهم يزيد بن عبد المدان وعبد الله بن عبد المدان في ربيع الأول سنة عشر، وأجازهم النبي عليه الصلاة والسلام، ثم انصرفوا في بقية شوال.

***

كانت خلافة الرشيد أعظم ما عرفته دولة في العصور الوسطى.. وكان قد أوتي من كل شيء سببا: الفروسية المثلى إلى جوار النفس الشاعرة، والبراعة في شئون السياسة والحكم والحرب إلى جوار التقي والورع، والبذخ والفخامة إلى جوار الصرامة والحزم، والاهتمام الأعظم بالعلم الإسلامي ومعه اهتمامه بترجمة علوم العالم من اليونانية والفارسية والهندية والسريانية والقطبية، لتنقل علوم العرب وعلوم الأقدمين معها فيما بعد إلى أوربة مترجمة من العربية، فتبدأ بها نهضة أوربة المعاصرة.

غزا الروم اثنتي عشرة مرة في حكمه الذي دام ثلاثة وعشرين عاما. وسير جيوشه إلى أنقرة وأنطاكية وطرسوس والبسفور في الشمال. وقاد جيوش أبيه إلى القسطنطينية سنة ١٦٥ وهو في السادسة عشرة. أما في الجنوب فكان نور الإسلام قد نفذ إلى قلب أفريقية. وأما في الشرق فكانت أواسط آسيا قد دانت للعرب منذ قرن. وأما في الغرب فكان جنوب أوربة الشرقي مذعنا للرشيد يتلمس رضاه، في حين كان جنوبها الغربي حتى شواطئ المحيط الأطلسي في يد المسلمين بالأندلس، بعد إذ انكفأت جيوشهم راجعة من شمال فرنسا. وكانت السفن العربية تمخر في لبحر عند موانئ الصين من زمان.

كانت الإمبراطورة "إيرين" في القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية وشعبها يدفعون له الجزية سبعين ألف دينار سنويا وهم صاغرون. وكانت هداياه وسفاراته إلى إمبراطور أوربة "شرلمان" حديث العالم.

وفي حين كانت قوى الإمبراطورية الإسلامية من المحيط الأطلسي حتى الهند تعج بأصوات العلماء والمتعلمين في شئون الدنيا والدين.. كان "شارلمان" أميا لا يقرأ ولا يكتب!

كان الرشيد مديد القامة أبيض وسيم الطلعة – مسمنا جميلا – في الخامسة والثلاثين من عمره، وفي الثانية عشرة من خلافته، شديد العارضة باده العقل. يناظر العلماء ويحضر مناظراتهم. ويقرض الشعر، ويرويه، هو وزوجته وأخواته وجواريه. تكاتبه زوجه وبنت عمه، زبيدة، في غزواته بنظيمها من القصائد الطوال ١ أستاذه قاضي القضاة أبو يوسف وقاضيه محمد بن الحسن، وهو يستمع إليهما وإلى مالك بن أنس.. في سفارته جابر بن حيان وفي ندامته الأصمعي، وفي دولته الخوارزمي والكندي، في طريقهما إلى بلاط ولده المأمون، ليحدثوا أعظم الأثر في الحضارة العلمية العالمية.

ومن بين شعرائه أبو العتاهية وأبو نواس وعباس بن الأحنف ومروان بن أبي حفصة، ومسلم بن الوليد والحسن بن الضحاك. وفي عصره الخليل بن أحمد والفراء والأخفش. أما أولاده فمن معلميهم الكسائي صاحب إحدى القراءات، وإمام اللغة الذي يتسابق إلى تقديم خفية إليه، تلميذاه الأمين والمأمون.. وليا عهد الرشيد.

وما تزال عين زبيدة تسقي مكة المكرمة وتحمل اسم زوجة التي أنفقت في إحدى حاجاتها ألفي ألف دينار. وكان في قصرها مائة جارية يقرأن القرآن.

وكان يحج عاما ويغزو عاما.. ويحدد شاعره مواضع لقائه بقوله:

فمن يطلب لقاءك أو يرده فبالحرمين أو أقصى الثغور

يصلي في اليوم مائة ركعة منذ حداثته الباكرة – وحج ماشيا، ولم يحج خليفة قبله ماشيا..! وإذا حج أحج معه مائة من العلماء وأبنائهم. وكان يتصدق في كل يوم من ماله بألف درهم.

كان يتنقل في بلاد الإمبراطورية الإسلامية فينتقل معه الرواة والعلماء. وفي غزاة من الغزوات مات محمد بن الحسن والكسائي سنة ١٨٩، في بلاطه بقرية رنبويه بالري فقال: دفنت الفقه والعربية بالري.

روى الأصمعي: "لما خرجنا مع الرشيد إلى الرقة قال لي: هل حملت معك شيئا من كتبك؟ قلت: نعم حملت منها ما خف حمله.. ثمانية عشر صندوقا. وقال: هذا لما خففت فلو ثقلت كم كنت حملت؟"

أما بغداد فيسكنها وقتئذ مليونان، وتتعالى فيها القصور، وتجري إلها التجارة من أقصى الأرض، في شرق آسيا أو وسط أوربة. وأما الضرائب فيجبى منها اثنان وسبعون مليون دينار في العام ما عدا الضرائب العينية التي تؤخذ مما تنتج الأرض.

كان يستلقي على ظهره ويقول للسحابة المارة: اذهبي حيث شئت يأتني خراجك.. والأرزاق دارة على الناس. والشعب ملتئم، والشمل منتظم، والقلوب وداعة.

لكن هذا الخليفة الذي يزدهي به التاريخ في الورع والعلم والشجاعة والسياسة والفنون والرفاهة، كان ابن آبائه في الحزم والحسم دفاعا عن دولته، وسيكون في ذلك أيضا أبا لأبنائه.. بدأت الدولة العباسية بأبي العباس السفاح وكان ذلك وصفه لما صنعه في سبيل الدولة.. استأمنه سليمان بن هشام وأبناؤه في نحو ثمانين رجلا من بني أمية فأمنهم ثم أنزل بهم صعقاته بين من سفك دمهم. وتلاه مؤسس الدولة الحقيقي أخوه الأصغر أبو جعفر – جد الرشيد – وكان عالما عادلا زاهدا من بناة الدول: أنفذ أبا مسلم الخراساني إلى عمه عبد الله بن علي بن العباس عندما خرج على الدولة فهزمه، فلما استسلم حبسه أبو جعفر ثم قتله. فلما خاف أبا مسلم على الدولة دعاه إلى مجلسه، وأمر به عبيده فقتلوه.

ومن قبل ذلك بسنوات قليلات كان دعاة الدولة الجديدة يدعوان سرا لبني هاشم ضد بني أمية. فلما أدالوها سرقوا الدولة الجديدة من بني عمومتهم – بني علي – وأعملوا السيوف فيهم.

وقتلت جيوش أبي جعفر العلويين الخارجين على الدولة شر قتلة. ومنهم عيسى بن زيد ومحمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (النفس الزكية).. قتل قريبا من المدينة وطيف برأسه في طبق أبيض! وهو الذي كان دعاة العباسية أنفسهم يدعون له من قبل. ثم قتل أخوه إبراهيم بالقرب من الكوفة.. وحبس أبو جعفر أباهما فأعمامهما ومات أبوهما في سجنه.

ولما ولي الحكم ابنه المهدي أبو الرشيد، كان مضرب المثل في العدل والتقوى، حافظا للقرآن والسنة، ومع ذلك قبض على وزيره يعقوب بن داود زمانا حتى أصابه العمى لأنه سلمه علويا لقتله فأطلقه.

وكان لوزيره معاوية بن يسار ابن تزندق – والزنادقة كفار أعداء الدولة – فدعا الخليفة الوالد وولده. سأله عن شيء من القرآن فلم يتمكن من تلاوة بعض الآيات. قال المهدي: ألم تخبرني أن ابنك حفظ القرآن؟ قال: بلى ولكن فارقني منذ مدة فنسيه. قال المهدي قم فتقرب إلى الله بدمه.. فقام الأب.. فعثر.. ووقع.. وارتعد. فأمر المهدي بعض الحضور بقتل الزنديق فضربت عنقه.

وفي سنة ١٦٩ قتل الهادي – أخو الرشيد – الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب قريبا من موضع يقال له فخ بين مكة والمدينة. وقتل الحسن بن محمد بن عبد الله (النفس الزكية). وهرب إدريس بن عبد الله بن الحسن (أخو إبراهيم ومحمد النفس الزكية)

إلى المغرب ليقيم دولة الأدارسة. ويقال إن الشريد بعث إليه من دس له السم في طنجة في المغرب.

وبعد عامين في سنة ١٨٦ سيجئ دور الرشيد مع الأخ الرابع للنفس الزكية يحيى بن عبد الله. وكان قد خرج عليه من سنوات، فأنفذ إليه ثمانين ألفا من المحاربين وأعطاه عهدا حتى سلم نفس ثم نقض العهد، بعد استفتاء العلماء. فمنهم من أيد الرشيد كأبي البختري، ومنهم من أيد العهد كمحمد بن الحسن، فحبس يحيى.. وضيق عليه حتى مات في حبسه.. شنشنة يعرفها التاريخ عن جدة أبي جعفر يوم نقض العهد ليزيد بن أبي هبيرة سنة ١٣٢ من أجل الدولة بعد أن استشار العلماء مثله وقتله.

ومنذ عام واحد – سنة ١٨٣ – كانت نهاية الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق.. وشي به الواشون فقبض عليه في المدينة وحبس في بغداد ودس إليه من قتله قتلا خفيا، وأدخل عليه شهود يشهدون أنه مات حتف أنفه.

وستثبت الأيام صحة مخاوف الرشيد على دولته من العلويين. فلسوف يصبح ابنه المأمون شيعيا. ويولي عهده عليا الرضا بن موسى الكاظم نفسه، ويدفنه إلى جوار الرشيد.. وتجري إرادة السماء على الرشيد في بيته وقبره وعلى يد ابن من أبنائه هو أعظم الخلفاء بعده!

وستبقى أسطورة المهدي المنتظر ظهوره – من أبناء علي – مشغلة للتاريخ الإسلامي. وتبقى فكرة الدولة الشيعية إرهاصات في ضمير الأمة لتصير حقائق هنا وهناك. فتقوم عليها دول عدة. منها دولة عظمى هي الدولة الفاطمية في سنة ٢٩٦ بالمغرب وفي سنة ٣٥٨ بمصر. وتضمحل أمامها سلطة الدولة العباسية. وستقوم لهم دولة بني بويه بالعراق. ودولة الأدارسة بأفريقية، ودولة بني تومرت، والدولة الحفصية ودولة الزيدية في اليمن، ودولة بطبرستان والديلم.١

ولم يكن الخوارج أقل متعبة للرشيد ولا هو كان أقل فتكا بهم.. لم يكد يلي الخلافة حتى خرج عليه "الصحصح" بالجزيرة فسير إليه من قتله سنة ١٧١. وفي سنة ١٧٨ خرج الوليد بن طريف الشاري فقتل.

***

كل هؤلاء كانوا من الأعداء، فمابالك بما صنعه من أجل دولته مع الأولياء.

كان يحيى بن خالد بن برمك واليا على أرمينية، وأستاذا عهد إليه "المهدي" في تربية الرشيد. فلما أفضت الخلافة إليه صار يحيى وأبناؤه كل شيء. فوض إليه الحكم وولى ابنه جعفرا على مصر ثم خراسان، واستوزر ابنه الفضل – وكانت الخيزران أم الرشيد قد أرضعت الفضل، كما أرضعت أم الفضل الرشيد ذاته.

ولبثت البرامكة الثلاثة يديرون الدولة سبعة عشر عاما..

وذات ليلة – بعد أعوام ثلاثة من محاكمة الشافعي – أصدر الرشيد أمره بإعدام جعفر. فسقط رأسه أمام خيمة الرشيد.. وقبض على إخوته الفضل ومحمد وخالد.. وعلى أبيه يحيى بن خالد..

ويشير الرشيد إلى صريع بطشه، جعفر، وكأنما قد قلبه من الصخر.. فينشد:

مـــن لـــم يؤدبـــه الجميـــ ـــل ففـــي عقوبتـــه صـــلاحه

وفرق البرد في الأمصار يقبض أموالهم وغلاتهم. فوجد لهم مما حباهم اثني عشر ألف ألف ومن سائر أموالهم ثلاثين ألف ألف وستمائة ألف وستة وأربعين ألفا! وأمر بجثة جعفر

فنصبت على رأس الجسر، يراها الرشيد، فتخضل بالدمع، ويعرف الجهش في صدره، ومع ذلك يقول: من يرد غير مائه يصدر بمثل دائه.. ثم يأمر بالنضاحات فينضح عليها حتى تحترق..!

ولما طال حبس يحيى جاءته زوج يحيى – أمه من الرضاع – قال الحاجب: ظئر أمير المؤمنين بالباب في حالة تقلب شماتة الحاسد إلى حنين الوالد.. فملا دخلت قام الرشيد محتفيا بها، وأكب على تقبيل رأسها – قالت: يا أمير المؤمنين.. لقد ربيتك وأخذت لك الأمان من دهري. ظئرك يحيى وأبوك بعد أبيك..! ومع ذلك يرد الرشيد: قدر سبق. وقضاء حم. وغضب من الله نزل.

وتعالت المناجاة. فكان يلوذ بذكر الله. ويقول: "لله الأمر من قبل ومن بعد". فلما رأته لاذ عن مطلبها أخرجت له حقا وضعته بين يديه، وأخرجت منه حذاءه وحفضه وذؤابته وثناياه وقد غمس ذلك بمسك نثير.

قالت: استشفع إليك وأستعين بالله وبما صار معي من كريم جسدك.. فأخذ الرشيد جميع ذلك فلثمه ثم استعبر وبكى.. وطال استرحامها.. فعاد يقول لها "يا أم الرشيد أمالي من الحق مثل الذي لهم"؟ يقصد زوجها وأولادها.

قالت: إنك لأعز علي وهم أحب إلي..

وقامت عنه.. فبقي مبهوتا ما يحير لفظة.

ومات يحيى بعد ثلاث سنين في سجنه سنة ١٩٠. ومات ابنه الفضل على إثره سجينا هو الآخر سنة ١٩٢.

هكذا كانت الإنسانية العالية تستحيل قسوة ضارية كلما كانت الدولة محل هجوم عليها أو دفاع عنها من الرشيد.

***

حشر محمد بن إدريس الشافعي مع العلويين كما يحشر المتهمون، على قدميه أو فوق قتب بعير، مغلولة أيديهم إلى أعناقهم. فلم يجدوا الرشيد ببغداد فاقتيدوا إليه في "القة" على ضفة الفرات الشرقية في شمال غربي الجزيرة.. وكان يستحب الإقامة فيها، فعمر بها دارا للملك واتخذها قاعدة للهجوم على الروم، يغزوهم في البحر الأسود، والبحر الأبيض، وجزيرتي قبرص ورودس. ذلك مكان المحاكمة.

أما زمانها فسنة ١٨٤، سنة جهاد للرشيد كسائر سنواته. فيها أخمد فتن الخارجين بخراسان. وأستأمنوه فآمنهم. وفيها سير أحمد بن هرون الشيباني إلى ممالك الروم فغنم وسلم.. وقيل كادت نفسه تذهب حسرات على أكبر أولاده أحمد.. كان قد ترك الدنيا وتزهد. يعمل بالأجرة ليعول نفسه ولا يدري به أحد.. حتى مات ولا يعلم به أحد.

أما الشهود: فإلى جوار الرشيد، يجلس قاض سيخلد اسمه وعلمه أكثر مما خلد الرشيد: محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة الذي أصبح فقيه الدولة الأول بعد إذ مات أبو يوسف منذ عامين. وهما المعروفان في التاريخ بأنهما "الصاحبان" للإمام الأعظم "أبي حنيفة النعمان".

تولى أبو يوسف رياسة القضاء، وكان يؤم الرشيد ويعلمه ويحج معه على بعير واحد، ويدخل عليه راكبا بغلته – ويقول الرشيد متعجبا: هاتوا لي مثله.. ولم مات قدرت ثروته

بمليونين. أما محمد فلم يكن من المال أو السلطان مثل أبي يوسف. كان أبو يوسف إذ هو شاب يستعين على الدهر بصرر يمنحه إياها أبو حنيفة، في حين جاء محمد إلى حلقة أبي حنيفة، فتى وضاء المحيا كأن جبينه من العاج، تقدر ثروته بثلاثين ألفا، أنفق نصفها على الفقه ونصفها على النحو ليتعلم. فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو في كتب خالدة، ولما علم الرشيد بكتابه "السير" بعث أولاده لسماع دروسه فيه.

وذات يوم أقبل الرشيد على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمدا، ومضى الرشيد ثم جاء الآذن يطلبه فوجبت القلوب. فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس قال: كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها. إنك أهلتني للعلم. فكرهت أن أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه. وإن ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار.

رضي الرشيد بمحمد تكريما للعلم مثلما جلس محمد تكريما له. وكلا الموقفين كرما الرشد وصاحب أبي حنيفة.

ذلك هو القاضي الذي سيمسي شاهد المحاكمة.

سبق محمد بن إدريس الشافعي في أقياده مع تعسة من العلويين، رجلا رجيلا في الرابعة والثلاثين، مضبوط الكلمات، وكما سيوصف لبعض ملوك الشام فيما بعد – مقتصدا في لباسه، طويلا، سائل الخدين، قليل لحم الوجه، طويل القصب، أسمر حسن السمت، عظيم العقل، حسن الوجه حسن الخلق، مهيبا فصيحا، من أذرب الناس لسانا. إذا أخرج لسانه بلغ أنفه.

وروى الشافعي حديث المحاكمة قال:

"وضربت أعناقهم واحدا واحدا إلى أن بقي حدث علوي من أهل المدينة وأنا. فقال للعلوي: أأنت الخارج علينا والزاعم أني لا أصلح للخلافة!

فقال العلوي: لن أدعي ذلك أو أقوله. فأمر بضرب عنقه.

قال العلوي: إن كان لابد من ضرب عنقي فأنظرني أكتب إلى أمي بالمدينة، فهي عجوز لم تعرف بخبري؛ فأمر بقتله فقتل".

هكذا ادارك الرجال التسعة صرعى دون رحمة، حتى الحدث الذي يعلن، التوب ويستغفر للذنب، فيعد بأن لا يقول شيئا مما أخذ عليه. مما قد يشير إلى أنه لا ينفي عن الماضي. وكل همه أن يكتب لأمه.

أما الآخرون فربما سقط في أيديهم ولم يجيبوا بطائل أو كانوا متعرفين مفاخرين. فما تزال اليمن إلى اليوم من معاقل الشيعة.

ويستطرد الشافعي فيقول ".. ثم قدمت ومحمد بن الحسن جالس معه فقال لي مثل ما قال للفتى. فقلت يا أمير المؤمنين لست بطالبي ولا علوي. وإنما أدخلت في القوم بغيا علي. وإنما أنا رجل من بني المطلب بن عبد مناف بن قصي. ولي مع ذلك حظ من العلم والفقه. والقاضي يعرف ذلك".

واستطرد يضيف "وأنا محمد بن إدريس بن عثمان بن شافع بن السائب بن.. ابن هاشم بن المطلب بن عبد مناف".

فقال له: "أنت محمد بن إدريس؟ ما ذكرك لي محمد بن الحسن، ثم عطف على محمد بن الحسن فقال: يا محمد ما يقول هذا – هو كما يقوله؟

قال محمد بن الحسن: بلى، وله من العلم محل كبير. وليس الذي رفع عليه من شأنه.

قال: فخذه حتى أنظر في أمره.

فأخذني محمد. فكان سبب خلاصي لما أراد عز وجل منه".

وفي رواية شارحة رووا أنه قال: يا أمير المؤمنين أأدع من يقول إني ابن عمه إلى من يقول إني عبده! قاصدا أن التهمة ليست مقبولة عقلا، إذا الرشيد من بني هاشم بن عبد مناف، والشافعي من بني المطلب بن عبد مناف، أخي هاشم – فهو لا يدع ابن عمه الرشيد. في حين أن إمام الشيعة يقول إن قريشا عبيد للعلويين ولا يقبل الحر أن يسترق.. فلا يدع من يقول إنه ابن عمه إلى من يقول إنه عبده.

شهد الشافعي مصارع الرجال التسعة تتهاوى رءوسهم واحدا إثر واحد. ولم يكن رجل حرب، قطع الرءوس من مألوف عاداته. بل كان لكل رأس تتطاير مشهد من مشاهد الروع قدر له أن يكون من حضاره، فما أقرب أن يخال نفسه من ضحاياه! حتى إذا طار رأس التاسع فصار أشلاء، على عين الشافعي، كان هو في أعقابه.. والعبرة لا تتم إلا بقتله. فتمام القتل مطلوب ومنتظر.

تقدم الشافعي فصار في مواجهة الرشيد، بعد كل ما رأى المتهم، وكل ما صنع الخليفة. فلم يفقد اتزانه فزعا أو غضبا أو يأسا. بل قدر الأمور بمقاديرها، لا أقل ولا أكثر. فلم يتخل عن

رباطة جأشه أو يعزب رأيه أو تزايله البلاغة التي أنعم بها الله عليه. فبده قاضيه بروعة دفاعه، كما سبقه شاهد نفيه إلى مجلس المحاكمة.

وكان رجل خيل، يعرف الوثبات الموفقة إلى الغاية المرتجاة، ويدرك التوازن فوق الصهوة أو في المعمعة.

وكان راميا لا يوشي. علمته الرماية. أنه لا يصيف الهدف إلا بالتحكم في أعصابه وأقواسه وسرعة خاطره.

وكان رجل كفاح ونضو أسفار، قد طالما شقت به النجائب أديم الصحراء منذ شهوره الأولى. من شمال الجزيرة إلى غربها حيث البيت العتيق، وطواها في بابه مرات ومرات من مكة وإلى مكة ذهوبا وجيئة، وطواها من الشرق إلى الغرب وإلى الجنوب في اليمن.

وكان من هامة قريش كالرشيد. بل كان ابن عم النبي ذاته.. وكان في عنفوان الفتوة والقوة لا يصغر الخليفة إلا بعام واحد. قطع مسافة العمر كلها في القرآن والسنة فهو أكثر الناس عزة بالعلم، وبقدرته على البيان. وهو مسئول عن الصدع بالحق، والظفر به. فما بالك إذا كان الدفاع بهذا كله واجبا عليه لنفسه.

كل أولئك أسباب تجعله يقف عالي الرأس هادئ النفس، إذ يقف في عين الردى، والردى يقظان يتوثب – فيلجأ إلى لسانه القوي وبيانه الذي لا يدفع، غير هياب، ولا متردد..

ولقد يقال مصادفة أن يجئ عاشر أقرانه. وقد يقال إن المصادفة الكبرى هي وجود محمد بن الحسن قاضي الرقة في جوار الرشيد. وقد تكون في الأمر صدفتان أو تدبيران تلاقيا على أن يجئ في آخر القوم ليخلو له وجه الرشيد، وتسعفه آيات البلاغة والخاطر الوقاد المسارع.

وقد يفيد في المعنى الأخير أن سأله الرشيد: أنت محمد بن إدريس..

لكن المؤكد أن كرة الأرض تدور بالناس وليسوا هم الذين يديرونها، وأن كرة الأرض بتمامها جرم صغير من أجرام كون كبير تمسكه يد العزيز الحكيم.

والذي ليست فيه مصادفة أن يفرخ روع المتهم بحضور القاضي في مجلس الرشيد، لأن المتهم سيصنع صنيعا ليس له نظائر في تاريخ المحاكمات، إذ وجد القاضي في مجلس المحاكمة فلم يدرئه، أو يتشفع به، ولكنه أشهده على الواقعة.

ومن قبل المحاكمة بأعوام سيق الأصمعي إلى بغداد مخفورا ليحاكمه المهدي لأن هواه مع بني أمية، وكان في مجلس المهدي سفيان بن عيينة، الذي تلقى عليه الأصمعي الحديث، وأطلق سراحه لأن المهدي لم يرد إلا تنبيهه.

والشافعي تلميذ سابق لسفيان ومعلم سابق للأصمعي. فلا مرية وثبت هذه السابقة إلى خياله فانفتح في ذهنه باب أمل وإن كانت تهمته أدعى للفزع.

***

تحدث الشافعي في أعوامه العشرين اللاحقة عن هذه المحاكمة حديثا متشابها في شتى الروايات، ولم يتحدث محمد ولا الرشيد، وهما وحدهما اللذان يظهران في الصورة. والأول قاض لا يتحدث عن شهادة أدلى بها. والثاني خليفة يحمل من هموم الدنيا ما تنوء به العصبة أولو القوة..

أما الشافعي فكان حديثه عنها كمثل تعبيراته في الفقه والعلم. كلمات موجزة، مركزة، كأنها سهام منطلقة. وما كان مرد ذلك إلى أنها ذكريات ساعات نحسات، أو ختام أيام مشائيم لا

تحلو لدى السرد. فلقد كانت وقائع مجد. لكنه مجد لرجل غير ذهاب في التيه، ولا مترافع. وهب ذاته بتمامها للقرآن والسنة، سيكون من تعاليمه للمسلمين أن (أرفع الناس قدرا من لا يرى قدره) وأن يعلم بالقدوة قدر ما علم بالقلم وبالكلمة.

فلا بدع أن نجد الإمام الذي كتب وأملى آلاف الصفحات، لا يترك لنا عن موقف الروع، أو رحلة الفزع، إلا بضعة اسطر.. بل لعل الغريب عن أسلوب نفسه ولسانه أن يتكلم عنها أكثر، وإن كان ثم روايات أخرى فكلها مختصر.

وأي هذا كان، فهذه أعظم القضايا بالتهمة وبالدفاع وبالحكم، وبالقاضي والشاهد والمتهم.

وجه إليه الخليفة عدم الاعتراف بحقه في إمارة المؤمنين، وقد بينا خطورتها قبل فأنكرها وبدأ دفاعه باعتزال شركائه المزعومين بقوله: "يا أمير المؤمنين، إنما أدخلت في القوم بغيا علي" وقاله بعد إذ كان حكم إدانتهم قد صدر ونفذ، فكانوا صرعى بين يدي الرشيد.

وساق الدفاع على أسس ثلاثة: واقعة مسلمة، وقرينة لا تخطئ، وبينة لا تدحض.

أما الواقعة فهي نسبه الذي لا يتناهى إلى عبد مناف كنسب الرشيد.

وأما القرينة فهي دلالة هذه الواقعة من نسبه ومضاهاتها للواقعة المدعاة عليه. مذ كان الشيعة يقولون إن قريشا عبيد للعلويين، في حين أن نسبه هذا يجعله ابن عم الرشيد.

وتنوع أسلوب الدفاع فصنع صنيع المدره المبدع، وبده المتهم قاضيه، بما يسمى بقلب المراكز أو تبادل المواقع، فانتقل من الجواب الذي يطلبه الخليفة منه إلى السؤال الذي يوجهه هو إلى الخليفة. "أأدع من يقول إني ابن عمه إلى من يقول إني عبده"؟ وهكذا أصبح السائل مسئولا،

وحق عليه أن يجيب بعقله إن لم يجب بقوله.. وبدأ حوار صامت بين الرجلين. وحدث التوقف، الذي يصطنع نظائره سادات البلاغة ليحدثوا التغيير في مجرى الأمور.. وسكت الغضب عن الرشيد، وأمسى حقيقا عليه أن يستعيد صفحات التاريخ من مجد آبائه. وهو بها جد عليم.

كان المطلب جد الشافعي وهاشم جد الرشيد أخوين متناصرين قبل الإسلام، كما كان أخواهما الآخران نوفل وعبد شمس – جد بني أمية أعداء بني العباس – أخوين متناصرين قبل الإسلام. وتكفل المطلب بابن أخيه عبد المطلب بعد إذ مات أبوه هاشم. والرشيد عليم أن جدود الشافعي كانوا دائما أنصار جدوده، وانهم كانوا معهم حزبا على جدود بني أمية، فلما كتبت قريش الصحيفة بينهم وبين بني هاشم دخل بنو المطلب مع بني هاشم. ولم يدخل بنو عبد شم ولا بنو نوفل. وكان يقال لهاشم جد الرشيد وللمطلب جد الشافعي: البدران. ويقال لعبد شمس ونوفل: الأبهران.

هكذا أوضح استنكاره للتهمة بلغة التاريخ ومواقف الآباء، نكران الاتهام. بين الأبناء.

وانتقل الدفاع من القرينة التي قد تحتاج لجهد، إلى البينة التي لا ترد، كالمدفعية الثقيلة لا تبقي ولا تذر، جاءت بعد تمهيد.

قال: "ولي حظ من العلم والفقه، والقاضي يعرف ذلك".

وكان مجرد حظ المرء من العلم والفقه وسيلة قاصدة إلى قلب الرشيد وأبيه وبنيه.

ويزيده حظا عنده، تواضع يدل على علو كعبه وطول باعه، حيث قال: إن له مجرد حظ من العلم والفقه.

تلك هي الأولى.

أما الثانية، فهي قوله: "والقاضي يعرف ذلك".

وأي قاض! إنه القاضي الجالس نفسه، محمد بن الحسن أعظم أهل الأرض علما يومذاك، بعد وفاة أبي حنيفة ومالك بن أنس وأبي يوسف.

كان الرشيد مسيرا بقانون السلطة، والدفاع عن النفس وعن الدولة، فإذا تكافأت الأدلة، فالفرق بين النجاة والممات فرق شعرة، لتشيل كفة وتجنح كفة.

وكان دأب الرشيد أن يضرب بشدة. لكن العدل أيضا كان شأنه.. فبنو العباس خلفاء دينيون في المقام الأول، ومن ثم تبحر الأولين منهم في علوم القرآن والسنة واللغة.. وكان توازن الرشيد مضرب المثل. كمثل توازنه بين العصف بالعدو، وبين العطف على الرعية، وتوازنه بين سمره وبين ورعه.

ولم يكن توازن المتهم أقل، بل كان أكثر.. فهو يسوق حججه على أعلى مستوى يتصوره دفاع عن متهم.. من شخص الخليفة وجدوده، ومن القاضي الجالس نفسه، ومن كونه فقيها، ومن أنه قرشي.

وهو قبل ذلك وبعده، مدرك أن كل نفس ذائقة الموت. ففيم يهاب أو يرتاب.

وكان لزاما أن يلقي محمد بن الحسن في الميزان بكل ثقله.. فألقى، عندما سأله الخليفة، فشهد أن ما يقوله هو كما يقوله.

مع ذلك لم تسلم رأس المتهم فتبرأ ساحته، بل أنسئ له الأجل: وكان أجلا غير مسمى.. إذ عهد فيه الرشيد إلى القاضي حتى ينظر الرشيد في أمره. ويبدو أن القاضي ترافع عن المتهم في غيبته في فترة التأجيل.

وكان ذلك سبب خلاص الشافعي للعمل في سبيل الله عز وجل.

وسنرى، بعد، أن الشافعي لم يكن غمرا من الأغمار عندما سيق في أصفاده إلى بلاط الرشيد. بل كان من مؤهلاته سنوات عشر في المجلس النبيه لمالك بن أنس، إمام المدينة وإمام أهل السنة. وكان الرشيد يجلس إلى مالك في بعض زياراته للمدينة أيام الحج، ويوصي أولاده بتعلم كتبه، وقد صار منهم ثلاثة خلفاء – كما لقيه أبوه المهدي وجده أبو جعفر. أما محمد بن الحسن فقد رحل إليه في حكم المهدي ليدرس عليه الموطأ، وليرويه عنه رواية مستقلة. فلم يكن يغيب عنه أمر كبار تلاميذه والدائبين على غشيان حلقته، مهما بعدت الشقة بين بغداد والمدينة. فثمة قربى بين التلامذة على الأستاذ الواحد. والحج فريضة تؤدى في كل عام. والمتفقهون يحجون بالمئين أو الآلاف. وأخبار الأستاذ أو تلاميذه لا تغيب عن أصفيائه. فالشافعي كان معروفا لدى محمد، إن كان قد تلمذ لمالك بعده، أو لم يجادل محمدا في أمر من الأمور في المدينة.

من أجل ذلك قال محمد في المتهم: "وله من العلم محل كبير". وذلك أحق من قوله عن نفسه "ولي حظ من العلم والفقه" وإن كان تواضع الشافعي أشكل وأمثل.

ومن أجل ذلك أيضا قال محمد كلمته الجامعة للبراءة المانعة للشبهة "وليس الذي رفع عليه من شأنه".. فكانت نطقا بقضاء.

كان حظه من العلم عظيما جد عظيم.. حسبه أن محمد بن الحسن لم يتح له إلا ثلاث سنين في حلقة مالك. أما فقد تلمذ لمالك أضعاف ذلك. وحسبه أنه صحح للأصمعي أعظم رواة الأدب أكبر مقدار من أبلغ الأشعار. بل حسبه أن أستاذ الحرم المكي ومفتي مكة "مسلم بن خالد الزنجي" قد أذن له من خمسة عشر عاما مضت أن يفتي الناس في المسجد الحرام ذاته.

***

برئت ساحة المتهم وأمر الرشيد له بعطاء قدره خمسون ألفا. فأخذها فانثالت من راحتيه عطايا على باب الرشيد. وكان لا يستطيع أن يرد عطية الرشيد، فتلك هدية أمير المؤمنين، وهو يعترف بخلافته. وهي أموال المسلمين يوزعها الخليفة عليهم.

قالوا لحق به "هرثمة بن أعين" – وكان ن كبار القواد – عند خروجه من باب أمير المؤمنين فقدم إليه هدية عظيمة فردها الشافعي قائلا: إني لا آخذ الهدية ممن هو دوني..

وهو هرثمة رجل الدولة المأمول.. يخضع الثوار في إفريقية، ويلي مصر، وسيليها ابنه. وآية على تفريق مال الرشيد ورفض مال القائد أنه لم يكن معه في الرقة إلا خمسون دينارا أنفقها كلها لنسخ الكتب على ما سنرى.

لكأنما الشافعي بحاجة إلى محنة الاتهام تزلزل أعماقه، وإلى نعمة البراءة تطلقه في الآفاق العلى.

وكأنما كان بحاجة إلى الصدمة ترده إلى البيت العتيق ليخدم القرآن والسنة.

كسب محمد بن الحسن بخلاص الشافعي أنه كان تلميذا لإمام فأضحى، دون أن يدري شيئا عن الغد، أستاذا لإمام.

وخرج الشافعي من التهمة. ليبدأ الصعود من القمة، ولينفرد كالنجم الثاقب في عالم الفقه. فكان لقاؤه مع الرشيد ومحمد أدنى درجات هذا الصعود.. تدفعه فيه قوى تقاس بمقياس تهمته وبراءته، وتقدير محمد والرشيد له.

وضع قدمه في موضع العظمى ثم رأى موضعها أبعد من أن يليق بالفقه، فزايل قمة الدنيا إلى القمم العليا. بتخصيص نفسه للعلم، والانصراف عما هو دونه، من السياسة أو الحكم. وهي موعظة ساقها الله إليه، فذلك بعض معاني قوله عن خلاصه لما أراده الله عز وجل.

ولم يبق في بغداد ليدور كالفراشة حول الأضواء، أو يستثمر النصر، فهو محمد بن إدريس الشافعي، وذلك وحده الأمر الأكبر.

كانت نجاته على يد الخليفة ذاته وشهادة القاضي له بيعة من الملأ العلمي والسياسي لينطلق إلى حيث قدرته السماء: ثالث الأئمة العظام لأهل الإسلام. وأين من الأئمة العظام في الإسلام هرون الرشيد ودولته.

أين الذي انتهى من هذا الذي سيبقى خالدا أبدا!

***

هدى الله الرشيد وهدى ابن عمه الشافعي، القرشي، وأنجاه، ليطبق علمه الآفاق، مصداق قوله عليه الصلاة والسلام "اللهم اهد قريشا فإن عالمها يملأ طباق الأرض علما".

وكانت المحنة بداية ارتفاع الشافعي إلى مدارات مالك وأبي حنيفة.. امتحن أبو حنيفة ليلي القضا لأبي جعفر المنصور، وامتحن مالك لفتواه، فزادتهما المحنة علوا في ضمير الزمان، وصهرت المحنة الشافعي فخلصت معدنه من عرض العمل الدنيوي، ووجهته إلى معارج الكفاح الديني. ليعلو ويعلو فيفوق نفسه.

والقدوة الصالحة كشعاع الشمس تنفذ إلى الأشياء والأشخاص، فتارة تظهر وتارة تتحول، لكنها تهب الخير والنور والعافية، وتدفع عناصر التقدم.